

تفسير البحر المحيط

@ 328 @ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، لأنهم بعدما أوتوا من البيان الواضح والدليل اللائح ، المذكور ذلك في التوراة والإنجيل ، من الإيفاء بالعهد والإيمان بالقرآن ، ظهر منهم ضد ذلك بكفرهم بالقرآن ومن جاء به ، وأقبل عليهم بالنداء ليحركهم لسماع ما يرد عليهم من الأوامر والنواهي ، نحو قوله : { مِنْهُمْ هُمْ لَمْ لَنْ جَهَنَّمَ مِّنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَذَادَمْ اسْكُنْ } . .

وقد تقدم الإشارة إلى ذلك ، وأضافهم إلى لفظ إسرائيل ، وهو يعقوب ، ولم يقل : يا بني يعقوب ، لما في لفظ إسرائيل من أن معناه عبد الله أو صفوة الله ، وذلك على أحسن تفاسيره ، فهزمهم بالإضافة إليه ، فكأنه قيل : يا بني عبد الله ، أو يا بني صفوة الله ، فكان في ذلك تنبيه على أن يكونوا مثل أبيهم في الخير ، كما تقول : يا ابن الرجل الصالح أطع الله ، فتضيفه إلى ما يحركه لطاعة الله ، لأن الإنسان يحب أن يقتفى أثر آبائه ، وإن لم يكن بذلك محموداً ، فكيف إذا كان محموداً ؟ ألا ترى : { بَلْ قَالُواْ إِنْ زَعَا وَجَدْنَاهَا بَاءً زَا } ، { بَلْ زَتَّ بَعُ مَا أَلْفَيْدَا عَلَايَهُمْ بَاءً زَا } ، وفي قوله : { مَعَى بَدَى إِسْرَائِيلَ } دليل على أن من انتمى إلى شخص ، ولو بوسائط كثيرة ، يطلق عليه أنه ابنه ، وعليه { تَتَقَوُّونَ وَإِذْ أَخَذَ } ويسمى ذلك أباً . قال تعالى : { مَلَّةَ أَبَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ } ، وفي إضافتهم إلى إسرائيل تشریف لهم بذكر نسبتهم لهذا الأصل الطيب ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن . ونقل عن أبي الفرج بن الجوزي : أنه ليس لأحد من الأنبياء غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (إسمان إلا يعقوب ، فإنه يعقوب ، وهو إسرائيل . ونقل الجوهري في صحاحه : أن المسيح اسم علم لعيسى ، لا اشتقاق له . وذكر البيهقي عن الخليل بن أحمد خمسة من الأنبياء ذو واسمين : محمد وأحمد نبينا صلى الله عليه وسلم) ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل . .

والمراد بقوله : { خَالِدُونَ يَابَدَى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا } من كان بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالمدينة ، وما والاها من بني إسرائيل ، أو من أسلم من اليهود وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم) ، أو أسلاف بني إسرائيل وقدمائهم ، أقوال ثلاثة : والأقرب الأول ، لأن من مات من أسلافهم لا يقال له : { وَءَامِنُواْ بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ } ، إلا على ضرب بعيد من التأويل ، ولأن من آمن منهم لا يقال له : { وَءَامِنُواْ بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ } ولا تَكُونُواْ أَوْسُلَ

كَافِرٍ بِهِ } ، إلا بمجاز بعيد . ويحتمل قوله : اذكروا الذكر باللسان والذكر بالقلب :
فعلى الأول يكون المعنى : أمرّوا النعم على ألسنتكم ولا تغفلوا عنها ، فإن إمرارها على
اللسان ومدارستها سبب في أن لا تنسى . وعلى الثاني يكون المعنى : تنبهوا للنعم ولا
تغفلوا عن شكرها . وفي النعمة المأمور بشكرها أو بحفظها أقوال : ما استودعوا من
التوراة التي فيها صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، أو ما أنعم به على أسلافهم من
إنجائهم من آل فرعون وإهلاك عدوهم وإيتائهم التوراة ونحو ذلك ، قاله الحسن والزجاج ، أو
إدراكهم مدة النبي صلى الله عليه وسلم) ، أو علم التوراة ، أو جميع النعم على جميع خلقه
وعلى سلفهم وخلفهم في جميع الأوقات على تصارييف الأحوال . وأظهر هذه الأقوال ما اختص به
بنو إسرائيل من النعم لظاهر قوله : { الَّتِي أَرْزَعَمْتُ عِلَايَكُمْ } ، ونعم الله على
بني إسرائيل كثيرة ، استنقذهم من بلاء فرعون وقومه ، وجعلهم أنبياء وملوكاً ، وأنزل
عليهم الكتب المعظمة ، وظلل عليهم في التيه الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى . قال
ابن عباس : أعطاهم عموداً من النور ليضاء لهم بالليل ، وكانت رؤوسهم لا تتشعث ، وثيابهم
لا تبلى . وإنما ذكروا بهذه النعم لأن في جملتها ما شهد بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم) ،
وهو : التوراة والإنجيل